

بين ليل الشباب وصبح المشيب

د/بتول حاج أحمد

قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الخرطوم¹

ملخص البحث

يعنى هذا البحث بإلقاء الضوء على نماذج شعرية صورت تجربة مبدعيها مع مرحلتى الشباب والشيخوخة وتمايزت هذه التجارب بين ميثاق على الشباب وأيامه الضربات في مقابل ضعف الشيخوخة، وبين مكابر مدعٍ مقدرته على إخفاء آثار الشيخوخة ليظل شاباً، وبين متذمر مبعث لها، وبين متقبل للواقع الذي ليس منه بد، وجسد عنوان البحث هذه المعاني في إطار رمزية الليل المشار بها إلى سواد الشعر في الشباب، ورمزية الصبح المشار بها إلى بياضه في الشيخوخة.

والجدير بالذكر أن نصوص البحث لم تقتصر على حقبة زمنية بعينها وإنما اختيرت بحسب موافقتها للموضوع.

تمهيد

الشيب والشباب مرحلتان تتوران عمر الإنسان وفق الإرادة الإلهية، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً وخلق ما يشاء وهو العليم القدير)¹ الضعف الأول هو الطفولة، والقوة هي قوة الرشد من بلوغ السمي إلى بلوغ الأشد والضعف الثاني هو

¹ مستنبطه حالياً إلى جامعة الملك سعود بالرياض.

الشيخوخة ومن مظاهر الشيخوخة تدهور في نشاط الجسم (قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً)² وبياض الرأس أكثر العلامات الدالة على الدخول في الشيخوخة يقول القزويني معلقاً على الآية سألقة الذكر (تركت الحقيقة في شاب الرأس إلى الاستعارة لأنها أبلغ، وإسناد الاشتغال إلى الرأس لإفادة شمول الشيب) وقال (وإنما ذكر العظم لأنه عماد البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه وإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن)³.

ومن صوروا الشيخوخة باعتبارها مرحلة عمرية حتمية تصاحبها أعراض تميزها

الشاعر حميد بن ثور في قوله

أري بصري قد رايتني بعد صحة و حسبك داءً أن تصح و تسلما

و لا يلبث العصران يوم و ليلة إذا طلبنا أن يدركنا ما تيممنا

يقول حميد إنه يقول: شيخاً وضعف بصره ثم قال لا يغرنك سلامتكم وقوتكم فهي إنما تؤدي بك إلى الهرم فالموت، ووصف سرعة انقضاء الزمن كأنه يوم وليلة.

ومنهم نصيب حين يقول⁴:

وكيف يقودني كلف بسعدي وهذا الشيب أصبح قد علايني

وودعي الشباب وكتت أسعي إلى داعي الشباب إذا دعاني

وإن يقني الشباب فكل شي من الدنيا فلا يغرنك فسان

ولو أني بقيت لمسى ليبلل وصبح فساره يتداولان

صحيحاً لا ألقى الموت حتى أدب علي القناة لأبأساني

ومنهم النمر بن تولب في قوله

تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تمر و أغفل

يود الفتي طول السلامة و العني فكيف تري طول السلامة تفعل
يرد الفتي بعد اعتدال و صحة ينوء إذا رام القيام و يحمل
وقف الشعراء في النماذج آنفة الذكر من الشيخوخة موقفاً موضوعياً بحسبانها أمراً لا
خيار للإنسان فيه وإنما تقتضيه دورة الحياة بدليل تأكيد النصوص حقيقة واقعة هي أنه مهما
طال العهد وتعاقبت الأيام والليالي فالمصير واحد وكما ورد في أبيات حميد بن ثور(حسبك
داءً أن تصبح وتسلما).

البكاء على الشباب

الزمن سهم لا عودة فيه ولا رجعة وهكذا يشعر الإنسان أن لحظات الزمان هي أشبه ما
تكون بقطرات الماء تتساقط بين أصابعه دون أن يقوى على استبقائها أو امتلاكها أو القبض
عليها، وعصر الشباب هو أجهل فترات عمر الإنسان حيث القوة والعنفوان والزهو والحيلاء،
وما يتبع هذا من التمتع بملذات الحياة فإذا جاءت الشيخوخة بأثقالها ووهنها وعجزها صار
الإنسان يردد ذكريات الشباب متشيباً بما بقي منه حزناً على فوائده، ولو خير لاختار أن يخلد
في الشباب ولكن هيهات. " كان الشيب وما يزال باعناً من أقوى البواعث التي تجعل
الشعراء يتمثلون خطى الزمن على أنفسهم وأجسادهم وقد عرف ديوان الشعر العربي عدداً
من التجارب عالج فيها الشعراء ذلك الإحساس المغمم بالصدق والأسى معاً لظهور أول
شعيرات بيضاء وهي تضرب سواد الشعر الفاحم وكأنها صفة قوية على حين غرة يستفيق
بعدها الإنسان متنبهاً إلى أن مرحلة الشباب في نزعها الأخير وأن الكهولة تقبل عليه في تودة
روقار"

قال أبو كبير الهذلي⁵:

أزهر هل عن شبية من معدل أم لا سبيل إلى الشباب الأول
أم لا سبيل إلى الشباب و ذكره أشهي إلى من الرحيق السلسل
لم يخف أبالعناية:ته وحرته على فوات الشباب، وما يقوى هذه النعمة الحزينة أسلوب
الاستفهام ولعله التقريبي، أما العبارة التي تؤكد تشبته بالشباب فقولته (أشهي إلى من
الرحيق السلسل).
وقال أبو العتاهية⁶:

هفي علي ورق الشباب	و غصونه الحصر الرطاب
ذهب الشباب و أبان	عني غير منظر الإياب
فأبكين علي الشباب	و طيب أيام التصابي
و لأبكين من البلي	و لأبكين من الحضاب
إني لآمل أن أخمد	و المنية في طلابسي

صور الشباب شجرة يانعة مكسوة ذات أغصان رطية، وما يلبس ذلك من النشوة
والتصابي، أما صورة الشيب فتمثل الموت أو الاقتراب منه تتشكل هذه الصورة من البلى
والحضاب (وهو المحاولة اليانعة لإخفاء أعظم مظهر للشيوخوخة وهو الشيب أما باقي
المظاهر فلا سبيل لإخفائها). ويلاحظ أن بكاء الشاعر جاء على الشباب أولاً ومن
الشيوخوخة وما يلبسها ثانياً، ومن ثم فهناك مقابلة لإحساسين لا يقل أحدهما عن الآخر
مرارة

ولذا استغل الشاعر أسلوب التأكيد في الحالين.

ولأبي العتاهية صورة أخرى للبكاء على الشباب مشابهة بقول⁷:

بكت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب

فيا أسفاً أسفت على شباب نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكان غضاً كما يعرى من السروق القضب
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب

بقى الشاعر مع قاموسه اللفظي الذي مر في أبياته آنفة الذكر، فصوّر الشباب في هيئة العصفن المخضو المورق أما المشيب فقد عرى هذا العصفن من ورقه (وعرى) تحمل في طباقها جميع معاني البلى المصاحبة للمشيب أما قوله (فأخبره بما صنع المشيب) فقد جاء أيضاً مشحوناً بهذه المعاني ولكن في إيماء لطيف تاركاً التفسير للمتلقى على نحو قول كثير عزة⁸:

تجافيت عني حين لا لي حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح
ولعل ممن بكوا الشباب بحرقة ابن خفاجة الذي بدأ متعلقاً بذكريات الماضي منكراً حاضره يقول⁹:

ألا ساحل دموعي يا غمام و طارحني بشحوك يا حمام
فقد وفتها ستين حـولاً و نادتي ورائي هل أمام
فيا شرح الشباب ألا لقضاء يبل به علي بـأس أوام
و ياظل الشباب و كنت تندي علي أفياء سرحتك السلام

بكاء بعاطفة صادقة، ودمع يحكي الغيث المنهمر، ولوعة تضاهي الحماسة في نوحها، ومما يقوى حسرة الشاعر على شبابه الذي ولى أنه نص على ما مضى من عمره ملمحاً إلى أن ما فات منه أكبر مما بقى في قوله (نادتي ورائي هل أمام) واستغلاله لأساليب الاستفهام والنداء والدعاء نقل لنا بصدق عمق حزنه ويأسه وحيرته ، أما توظيفه للسرحة وظلها فكفى به عن معاني السرور والرغد الذي كان في شبابه.

ومن بكوا الشباب الشريف المرتضى في قوله¹⁰:

زمن الشباب لا عدتك تحمة و سقاك منهجر الحيا ما استغزرا
فلطالما أحصي ردائي ساجيا في ظلك الوافي و عودي أخضرا
أيام يرمقني الغزال إذا دنسا شغفاً ويطرقني الخيال إذا سرى

الشاعر يدعو لأيام الشباب بالسقيا فقد كانت أيام خياله وتمتعه بالنصاي، آثر الشاعر التلميح على التصريح حين كفى عن زهو الشباب بالرداء الساحب، وعن عنفوانه بالعود الأخضر، وشبه محبوبته التي كان يصبو لها بالغزال.

ورأينا من مظاهر بكاء الشباب والتعسر عليه مزاوله بعض الشيوخ من الشعراء النصاي عن كره، في محاولة يائسة لإبقاء روح الشباب مثال ذلك النابغة الذبياني في قوله¹¹:

دعاك الهوى و استجهلتك المنازل و كيف تصاي المرء و الشيب شامل
و قوله¹²:

علي حين عاتبت الفؤاد علي الصبي و قلت ألما أصح و الشيب وازع
و قال علقمة الفحل¹³:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
و قال¹⁴:

هل ما علمت و ما استودعت مكثوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
و هل كبير بكى لم يقض عبرته إثر الأحية يوم البين مشكوم

يصر الشاعر ابن منذر على صبوته مع كرهه ولكنه يلتمس لها مسوغاً من الشرع يقول¹⁵:

هل عندكم رخصة عن الحسن ال بصري في اللهو وابن سرينا
إن سفاهاً يذئ الجلالسة وال شبية ألا يزال مفتوننا

لبست طوق الصبي وبارقه
وقد مضى من سنى ستونا
أما الشاعر بهاء زهير ف يرى أن الشباب لا صلة له بالهيئة الجسدية بل يكفي أن يكون
القلب شاباً والنفس مطمئنة راضية يقول¹⁶:

قالوا كبرت عن الصبي و قطعت تلك الناحية
فدع الصبي لرجاله و أخلع ثياب العارية
و نعم كبرت و إنما تلك الشمانل باقية
و يفوح من عطفي أنفا س الشباب كما هية
و يجيل بي نحو الصبي قلب رقيق الحاشية
فيه من الطرب القديم بقية في الزاوية

وقد ورد عن أحد أساتذة علم النفس ما يواكب ما ذهب إليه الشاعر بهاء زهير في
الآيات السابقة يقول الأستاذ (قد يوجد بين الشيوخ من يتشوق إلى الخبرات الجديدة غير
عابئين بفترة العمر المتبقية، فإذا كانت حياة الإنسان مبدودة على هذه الأرض، وإذا كان
الإنسان يبدأ طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً ثم يموت، فليس شرطاً أن تكون شيخوخته مخوفة
بالخفوت ومحوطة بالأمراض بل يمكن أن يمتد الشباب وتحتفي الشيخوخة بالمعنى السائد وهو
الوهن والذبول والتدهور)¹⁷.

ويواجه الكبير التصابي عقبة كؤوداً هي نفور الغوان منه وإقباهن نحو الشباب.
قال علقمة الفحل¹⁸:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصر بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

وقال زهير بن أبي سلمى¹⁹ :

وقال العذارى إنما أنت عمنا وكان الشباب كاخليظ نزايله
ولا يتعجب أبو تمام أن تنكر الغواني شبيه لأنه هو نفسه يبغضه وينكره يقول²⁰ :

يا نسيب الطعام ذنك أبقــــــــي حسناي عند الحسان ذنوبنا
و لئن عين ما رأين لقد أنكرن مستكراً و عين معيــــــــا
أو تصدعن عن قلبي لكفــــــــي بالشيب بيني و بينهن حسيبا
وقد يلجأ الشيوخ إلى حيلة يخفون بها الشيب وهي الخضاب ولكنها حيلة لا تنطلي على
الغواني فليس الأمر في بياض الشعر أو سواده بل فيما يصاحب السواد من الماء والرونق وما
يصاحب البياض من مظاهر الفناء والبلى قال الشاعر²¹ :

صبغت الرأس ختلاً للغواني كما غطي علي الريب الريب
أعلل مرة و أسام أخري و لا تحصي من الكبر العيوب
أسوف توبيي خمسين عاماً و ظني أن مثلي لا يتســــــــوب

وقال كشاجم مستكراً الخضاب²² :

يا خاضب الشيب و الأيام تظهره هذا شباب لعمر الله مصنوع
أذكرتني قول ذي لب و تجربة في مثله لك تأديب و تفریع
إن الحديد إذا ما زيد في خَلْق تبين الناس أن الثوب مرقوع

الشيب أوفر والشبية أنزق

وردت نصوص شعرية تصف الشباب بأنه أوان الهوى والشهوات والتهور والاندفاع،
والشيخوخة بأنها أوان الوقار والاتزان. ولخص المتنبي ذلك في قوله²³ :

والمرء يأمل والحياة شهية
ومثله قول الأحوص²⁴:
قامت تخاصرون بقنتها
كل يري أن الشباب له
وقال رؤية²⁵:
رايك و الشيب قناع المقت
وخشتني بعد الشباب الصلت
ما نسلك يوم جمعة من سبت
كحبة الماء جري في القلت
أركب ما دون الفجور البحت
الشاعر في شبابه في حالة ذهول وغفلة وانغماس في الملذات والفجور يتلون مرة من الإنس
ومرة من الجن إن لزم الأمر لا يحس بمرور الزمن إلى أن جاء المشيب فردده إلى جادة الطريق.
وقال السيد الرئيس أبو الحسن²⁶:
خليلي إن لم تسعداني فاقصرا فليس يداوي بالعتاب المتيم
تريدان متي النسلك في غير حينه و غصني ريان و رأسي أسحم
الشاعر يستتكف أن يتنسلك وهو شاب وكفى عن الشباب بقوله (و غصني ريان ورأسي
أسحم) والأمر ذاته ينطبق على البهاء زهير حين يقول²⁷:
و عاذلة باتت تلوم علي الهوى وبالنسلك في شرح الشباب تشير
أنتي و قالت يا زهير أصوبة و أنت حقيق بالعفاف جدير
فقلت دعيني اغتمها مرة فما كل وقت يستقيم سرور

أما الناشئ الأكبر فيبغي التمتع باللذات من تصابٍ وشربٍ حمرٍ وغيره في شبابه ثم يأخذ على نفسه موثقاً أن يقلع عنها حين يشيب (حين يفارقني سواد المفرق) يقول²⁸:

ولقد بييت أحو المودة لاتي في حبيها لوم الشفيق المشفق
حتى إذا طلعت فأبصر شخصها أخزى جهالة لاتي المستحرق
كم قطعت بوصلها من ليلية وبشرب صافية كلون الزنبيق
يسعى بما كاليدر ليلة تمسه سحار ألاحظ رخيخ المنطق
آليت أترك ذا و تلك و هذه حتى يفارقني سواد المفرق
لا تنكر أن الشباب أميل من الشيب للتصابي والتمتع باللذات ولكن لا يعنى هذا الأمر أن الشاب محمول له أن يأتي ما حرم الله كما ورد في أبيات الناشئ الأكبر.
وقال أبو نواس على ذات النهج آنف الذكر²⁹:

كان الشباب مظنة الجهل ومحسن الضحكات و الهزل
كان الجميل إذا ارتدبت به ومشيت أخطر صيت النعل
كان الفصيح إذا نطقت به وأصاحت الأذان للملبي
كان المشفق في مآربه عند الفتاة ومدرك النيل
و الباعثي و الناس قد هجموا حتى أكون خليفة البعسل
و الأمري حتى إذا عزمتم نفسي أعان يدي بالفعسل

صور أبو نواس خيلاء الشباب وعنفوانه أجل تصوير من الجهة الحسية المتمثلة في الجمال والصخب ولعله بقوله (صيت النعل) جعلنا تمثل الشاب وهو يظأ الأرض بقوة كأنه يروم اختراقها تيهاً، ولم ينس قوة البيان ونصاعته لدى الشاب، ولكن أبا نواس في الأبيات الثلاثة الأخيرة نهج نهجاً مجونياً حين جعل صوته في الاعتداء على الخمار ملقياً تبعه ذلك على

الشباب جوراً وبعثاناً كما هو واضح في البيت الأخير.

أما وقار الشيب فأمر أثبتته علم النفس الحديث (ومما يقال كثيراً إن الإنسان مع تقدمه في السن تعوض الخبرة وسعة المعلومات التدهور الحتمي في الوظائف العقلية والجسمية، وهذا المكوّن الإيجابي في النمو المعرفي يرتبط بما يسميه الباحثون (الحكمة) والتي تشير إلى خصائص معينة مثل الحس والاستبطان والخبرة والتكامل العقلي والتعاطف ورشد القرار والفهم والصبر وهي خاصة أكثر شيوعاً لدى المسنين)³⁰ وإليك أمثلة لشعراء رأوا في الشيب وازعاً بينه العاقل لتجنب الملذات وأن يؤثر الوقار والتفكير في ما هو مقبل عليه.
قال علي بن جبلة³¹:

وأرى الليالي ما طوت من قوتي ردتسه في عظمي وفي إفهامي
وقال أسامة بن منقذ³²:

قالوا هته الأربعون عن الصبا وأخو المشيب يجور تحت يهتدي
كم ضل في ليل الشباب فدلّه وضح المشيب إلى الطريق الأقص
ولنقف مع ابن خفاجة الذي رأيناه من قبل متعلقاً بالشباب متحسراً على فواته ليرى
بماذا يصف المشيب³³:

فمن مبلغ عني الشيبية أنسي لويت عناني عن طريق الجسرائم
وملت بطرفي عن فتاة وقهوة وعظمت سمعي عن ملام اللسوانم
فهل ساء دعداً أن كبرنا عن الصبي ولتنا علي الأحلام بيض العمائم
صحونا وقد أصحت هناك سماننا وكنا نشاوي تحت ظل الغمامم
صور مرحلة الشيب بما يوائمها من الوقار والابتعاد عن التصابي والطيّش واللهو وشرب
الخمير، وعقد مقابلة بين ما كان عليه من تصاب في صباه وبين ما صار إليه من وقار في شيبه

(ولتنا على الأحلام بيض العمامم) وإن كان في لا شعوره ما زال مع التصابي (وهل ساء
دعداً أن كبرنا) إذ الذي ساءه أن كبر عن التصابي ليس دعداً وإنما الشاعر ذاته. والبيت
الأخير هو بيت القصيد حيث أشار إلى الصحو بعد الغفلة وسكرة الشباب، فجعل الشيب
صحوً لياضه وصحواً لما فيه من يقظة وتنبه أما الشباب فجعله غماماً لسواد الشعر فيه
وغماماً لما فيه من غفلة وانغماس في الشهوات.
وقال أبو هلال العسكري واصفاً الشيب³⁴:

أراني منهاج الهدى فسلكته ولم تتشعب في الضلال مذاهبي
وختير أن الجهل ليس بآيب إلي وأن الحلم ليس بعزازب
فأفصح من بعد العجومة مادحي وأعجم من بعد الفصاحة عاني

حشد أبو هلال مقابلات لفظية في كل بيت ليجسد وقار الشيب وحكمته في مقابل غي
الشباب وطيشه مثال ذلك (الهدى والضلال)، (الجهل والحلم)، (الفصاحة والعجمة)،
من الشعراء من أعطى الشيب صفة الناصح والواعظ باعتبار أنه أوان النصح والوقار
والحكم الراجح ومن هنا يمثل الوازع الأخلاقي لنتجه الكثير إلى الصالح من الأعمال. قال أبو
نواس³⁵:

أية نار قدح القادح وأي جد بلغ المـأزح
لله در الشيب من واعظ و ناصح لو حظي الناصح
يأبى الفسقي إلا اتباع الهوى و منهج الحق له واضح
فاسم بعينك إلي نسوة مهوهرن العمل الصالح

تقابل أبيات أبي نواس هذه في الشيب وكونه واعظاً وناصِحاً أبياته التي مرت والتي تصف
الشباب وما فيه من قهور وإتباع للهوى وإتيان للمعاصي بينما الشيب في هذه الأبيات

يدعوه أن يسمو بعينه إلى نسوة مهورهن العمل الصالح فالشباب في الأبيات السالفة يدعوه
(بزعمه) أن يكون خليفة العمل³⁶. فهل حقاً انتقل الشاعر في مثيه هذه النقلة أم الشعراء
مما يقولون!

وإلى مثل هذه المعاني أشار البوصيري في برده³⁷:

إني أقمت نصيح الشيب في عذلي و الشيب أبعد في نصح من النهم
فإن أمارتي بالسوء ما اعظمت من جهلها بتذير الشيب و الهـرم
و لا أعدت من الفعل الجميل قري ضيف ألم برأس غير محتشم
ومثله أبو العتاهية الذي جعل من المشيب مؤدباً في قوله³⁸:

فلقد نعاك الشيب يو م رأيت رأسك أشيسا

ذهب الشباب بلهوه وأتى المشيب مؤديسا

وكفأك ما جريته حسب امرئ ماجريا

وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز³⁹:

مات الهوى منى وضاع شباي وقضيت من لذاته آرابسى

وإذا أردت تصاياها في مجلس فالشيب يضحك بي مع الأصحاب

الشيب يضحك به أي كأنه ينيه ويردعه لتعاطيه ما لا يليق.

برم بالشيب وذم له

لقد أشرنا من قبل أن الإنسان بطبعه محب للشباب متشبث به مبغض للشيب نافر منه
ولكن فئة من الشعراء ذهبت مذهباً بعيداً في الضيق والبرم بالشيب حتى وصلت إلى حد
الحنق والإحباط ومن ثم فليس للشيب عندهم مزية تذكر. من هؤلاء الشعراء كعب بن زهير
حين يقول⁴⁰:

بان الشباب و أمسي الشيب قد أرفا
عاد السواد بياضاً في مفارقــــه
و لا أري لشباب ذاهب خلفا
لا مرحبا بهذا اللون الذي ردفا
في كل يوم أري منه مبيــــنة
تكاد تسقط مني مئة أسفــــا
ليت الشباب حليف لا يزايلنا
بل ليته ارتد منه بعض ما سلفا

راوح الشاعر بين بكانه على شبابه الذي ولى، وبين بكانه من مشييه الذي أرف مستغلاً
رمزية السواد للشباب والبياض للشيب ونص على عدم ترحيبه بالشيب الذي أحال حياته
إلى تدهور مطرد.

ومنهم حميد بن ثور الذي لم يختلف كثيراً عن كعب بن زهير في إشارته لما مر من شبابه
حيث الزهو والنضارة ثم انتقاله إلى وصف حاله في مشييه مصرحاً بضيقه وكرهه له يقول⁴¹:

لكل دهر قد لست أثــــوبا
حتى اكسى الرأس قناعا أشيا
من ربطة واليمنة المعصبا
أملح لا لذأ ولا محيــــبا
أكره جلاب إذا تجلبــــبا

ومنهم ابن الرومي الذي استنكر إيجابية البياض في الشيب فجعله ضوءاً لا يستضاء به بل
يمثل له الظلام والقنامة ثم شبه معاناته وإحباطه مع المشيب بصفقة خاسرة باع الشاعر فيها
الشباب بالمشيب يقول:

ضوء تشعشع في سواد ذواني
بعث الشباب على مقة لــــه
لا استضي به و لا استصبح
بيع العالمم بأنه لا يربــــح
ومنهم المتبي حين يقول⁴²:
ضيف ألم برأسي غير محتشم
أبعد بعدت بياضاً لا بياض له
والسيف أحسن فعلاً منه باللمم
لأنت أسود في عيني من الظلم

في البيت الأول يضيق الشاعر بالشيب ويتمنى الموت من أن يعايشه أما في البيت الثاني فلا يرى المتني في بياض الشيب إلا الظلام الحالك الذي يعم أرجاء نفسه، ولا غرو فإن المتني كان شديد التشبث بالشباب حتى أنه بكى على فواته وهو شاب حين قال⁴³ :

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولما وجهي رونسق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق

أما الشاعر أبو تمام فاستغل ملكاته الإبداعية لينقل لنا أمودجاً فريداً لتجربته المريرة مع الشيب يقول⁴⁴ :

أصبحت في روضة الشباب هشيما و غدت ريمح الليل سھوما
شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلاً صميما
غرة غرة ألا إنما كمن ت أغر أيام كنت هريما
دقة في الحياة تدعي جلالاً مثل ما سمي اللديغ سليما

بدا الشاعر حزناً غاية الحزن على مفارقتة الشباب بريمح الليل حين أظله الشيب بسمومه وهجره وأنكر بالجاح أن يكون للشيب أي مظهر إيجابي مما ينسب إليه من أن بياضه ضياء أو أنه غرة في الجبين بل هو شعلة أحرقت فؤاده وأورثته ثكلاً صميماً، ولم لا وقد فارق بحلوله شبابه إلى غير رجعة ويكر الشاعر أيضاً ما ينسب للشيب من كونه جلالاً ووقاراً ويعد ذلك ضرباً من التمويه مشبهاً إياه بتسمية العرب للديغ سليماً ليس على سبيل التحقيق وإنما على سبيل التفاضل بأن يكون كذلك. فأي برم بالشيب وأي حتى أكبر من هذا؟ وقد رأينا أبا تمام من قبل لا يستكر على الفواني نفورهن من الشيب ويؤكد أنهن أنكرن منكراً وعين معياً⁴⁵.

ولأي تمام مثال آخر مشابه يقول فيه⁴⁶ :

غدا الشيب مخنطاً بفودي خطــــة سبيل الردى منها إلي النفس مهيع
هو الزور يُجفني و المعاشر يجتسوى و ذو الإلف يقلي و الجديد يرقع
له منظر في العين أبيض ناصع و لكنه في القلب أسود أسفوع
و نحن نرجيه علي السخط و الرضي و أنف الفتي من وجهه و هو أجدع
بقي أبوتمام في هذه الأبيات مبعضاً للشيب ذاماً له فجعله في البيت الأول نذير الموت ثم
جاء البيت الثاني زاخراً بمقابلات لفظية تؤكد إحساس الشاعر المقعم بمعان الكره للشيب
والنفور منه فهو (زور يجفني و معاشر يجتوى و ذو إلف يقلي و جديد يرقع)، وفي البيت
الثالث يشير إلى أن بياض الشيب الظاهري يقابله سواد دامس في نفسه، ثم أكد الشاعر في
البيت الرابع حتمية الشيب وأن لا خيار له ولا لغيره فيه بل يأتيه الإنسان على حد قوله (و
أنفه أجدع) .

الشيب واقع ليس منه بد

وردت تجارب شعرية مع المشيب اتسمت بسعي حثيث لمعايشته دون إبداء التذمر أو الضيق
وذلك لكونه واقعاً حتمياً تقتضيه دورة حياة الإنسان، ومن ثم لا يرون فيه ما يشين ولا ما
يدفع الآخرين لذمه كقول الشاعر⁴⁷:

صدت هنيذة لما جنت زانرها	عنى بمطروقة إنسانها غسرق
وراعها الشيب في رأسي فقلت لها	كذاك يصفر بعد الخضرة الورق
وكقول علبة بن يزيد السلمى	
تمزأت عرسي واستكركت	شبي فففيها جفف وازورار
لا تكثري هزءاً ولا تعجبي	فليس بالشيب على المرء عار
عمرك هل تدرين أن الفتي	شبابه نوب علىــــه معار

ويبدو الشاعر العلوي الأصفهاني وقد أقنع نفسه بسياسة الرضا بالأمر الواقع فرأى في الشباب غدراً وفي الشيب وفاءً فأقبل على ما بين يديه ولم يباك على ما فاتته حيث يقول⁴⁸ :

دع حب أول من كلفت بحبسه ما الحب إلا للحبيب الآخر
ما قد تولي لا ارتجاع لطيبه هل غائب اللذات مثل الحاضر
إن المشيب وقد وفي بمقامه أوفي لدي من الشباب الغادر
دياك يومك دون أصسك فاعتبر ما السالف المفقود مثل الغابر

ووردت نماذج لشعراء رضوا بواقع الشيب ولكنهم مكابرة فروا منه بمعناه المعروف الدال على تقدم السن إلى أغماظ أخرى من المسوغات أراد كل شاعر أن يجعلها سبباً لشيبه فالشريف الرضي شيبته كثرة الوقائع والتجارب الحياتية حين يقول⁴⁹ :

صدت شرير وأزمت هجري وصفت ضمائرنا إلى الغدر
قالت كبرت و شبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر
وعمر بن جعد الأزدي شبهه الطموح حين يقول⁵⁰ :

عبرتني ميمونة الشيب في الرأ س وقد كنت أن أشيب جديرا
من يكن هم رفيعاً كهمني و يباكر جوب البلاد صغيرا
يلق مثل ما لقيت من الشيب فلا تعجبي لذلك كثيـرا

أما المنتهي فشيبه الحب حين يقول⁵¹ :

شيب رأسي وذلتني ونحولي ودموعي على هواك شهودي
وخاتمة القول فإن الدعوى القائمة بين الشيب والشباب دعوى يصعب الفصل فيها وقد رأينا الشعراء يتفاوتون في انفعالهم بما ومقدرتهم على معاشتها بكل مظاهرها السالبة والإيجابية وفي استثمارهم لها للوصول بمركب الحياة إلى جودي الأمان.

هوامش البحث

- ¹ سورة الروم الآية 54
- ² سورة مريم الآية 4
- ³ الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب القزويني ص 182 دار احياء العلوم بيروت 1422هـ-2001م
- ⁴ الكامل 1 المبرد ص 127 مؤسسة المعارف - بيروت (د. ت)
- ⁵ الشعر والشعراء 2 ابن قتيبة ص 670 دار الحديث للقاهرة 1418هـ-1998م
- ⁶ ديوان أبي العتاهية ص 45 دار الملاح دمشق (د. ت)
- ⁷ نفسه ص 48
- ⁸ العمدة 1 ابن رشيقي ص 479 دار ومكتبة الهلال بيروت الطبعة الأولى 1416هـ-1996م
- ⁹ ديوان ابن خفاجة دار صادر بيروت 1408هـ-1988م
- ¹⁰ الشهاب في الشيب والشباب لشريف المرتضى ص 124 دار الرائد العربي بيروت 1982م
- ¹¹ ديوان النابغة الجبالي ص 454 الشركة التونسية للتوزيع تونس (د. ت)
- ¹² نفسه ص 475
- ¹³ المفضليات الضبي ص 410 دار المعارف مصر 1964م
- ¹⁴ نفسه ص 401
- ¹⁵ الشعر والشعراء 2 ص 869
- ¹⁶ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية أحمد أحمد بدوي ص 278
- ¹⁷ رعاية الشيخوخة يوسف ميخائيل أسعد ص 24 دار غريب القاهرة 2000م
- ¹⁸ المفضليات الضبي ص 410
- ¹⁹ ديوان زهير ص 138 مطبعة دار الكتب المصرية 13663هـ-1944م
- ²⁰ ديوان أبي تمام ص 29 للشركة اللبنانية للكتاب بيروت 1387هـ-1968م
- ²¹ الكامل 1 المبرد ص 342
- ²² العمدة 1 ابن رشيقي ص 141
- ²³ ديوان المتنبي 3 ص 76 شرح البرقوق في دار الكتاب العربي بيروت 1407هـ - 1986م

- ²⁴ البيان والتبيين 1 الجاحظ ص 125 المكتبة المصرية بيروت 1421هـ-2000م
- ²⁵ ديوان رؤية ص 23 منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت 1979م
- ²⁶ العمدة 1 ابن رشيق ص 181
- ²⁷ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية أحمد أحمد بدوي
- ²⁸ للعمدة 1 ابن رشيق ص 182
- ²⁹ الشعر والشعراء 2 ابن قتيبة ص 820
- ³⁰ نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين ص 665 أمال صادق وفؤاد أبو الحطب مكتبة الأملج القاهرة 1990م
- ³¹ دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجاني ص 366 دار الكتاب العربي بيروت 1417هـ-1997م
- ³² لب الدول لفتاوية عمر موسى باشا ص 288 دار الفكر الحديث لبنان للطباعة الأولى 1967م
- ³³ ديوان ابن خفاجة ص 254
- ³⁴ الصناعاتين أبو هلال العسكري ص 482
- ³⁵ البيان والتبيين 1 الجاحظ ص 510
- ³⁶ نظير البحث ص 12
- ³⁷ ديوان البوصيري ص 190
- ³⁸ ديوان أبي العتاهية ص 46
- ³⁹ أسرار البلاغة الجرجاني ص 227
- ⁴⁰ ديوان كعب بن زهير ص 72 دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى 1414هـ-1994م
- ⁴¹ ديوان حميد بن ثور ص 61
- ⁴² ديوان المتنبي 4 ص 150
- ⁴³ نفسه 3 ص 76
- ⁴⁴ صناعاتين أبو هلال العسكري ص 327
- ⁴⁵ نظير البحث ص 9
- ⁴⁶ ديوان أبي تمام ص 168
- ⁴⁷ البيان والتبيين 1 الجاحظ ص 146
- ⁴⁸ صناعاتين العسكري ص 436
- ⁴⁹ أسرار البلاغة الجرجاني ص 219
- ⁵⁰ مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود الساخرة عبدالله محمد العنزي ص 436
- ⁵¹ ديوان المتنبي 2 ص 43